

التصوف

بحث تحليلي انتقادي

١ - تعريف

(١) ماهو التصوف ومن الصوفي

قال رويم بن احمد البغدادي « التصوف مبنى على ثلاث خصال: التمسك بالفقر والافتقار والتحقق بالبذل وترك الغرض والاختيار (١) » وقال الكرخي « التصوف هو الاخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق (٢) » والجنيد « أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة » (٣) وسمعون « أن لا تملك شيئاً ولا يملكك شيء » (٤) قيل للحصري « من الصوفي عندك ؟ » فقال « الذي لا تملكه الارض ولا تظله السماء (٥) »

« والصوفي واحد والجماعة صوفية ومن يتوصل الى ذلك متصوف والجماعة متصوفة »

(٢) مم اشتق الاسم ؟

يرى أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي (توفي سنة ٥٣٨٧ هـ) ان هذا الاسم ليس بمحدث لان الحسن البصري الذي ادرك جماعة من الصحابة (توفي سنة ٧٢٨ م) رأى « صوفيا » يطوف بالكعبة. وأما الحقيقة الراهنة ففتبين من هذه الجملة « وجد الاسم حتى في زمن الجاهلية ولكنه لم يتخذ المعنى المتعارف بالصوفي كاحد رجال النظام الصوفي الحادث في الملة الاسلامية الا بعد تأسيس سلطاتها »

أضف الى ذلك ان الحسن البصري لم يكن صوفيا عريقا في التصوف وانما كان من زعماء المبتدئين الزهاد، ورؤيسا للمجالس الجدلية الفكرية حينئذ، ولم يضعه

(١) الرسالة التفسيرية في التصوف للقشيري — مطبعة دار الكتب في ١٢٨٧ هـ

ص ١٢٧ (٢) منه أيضا هي ١٢٧

(٣) كتاب اللمع في التصوف للسراج الطوسي (مطبوعة الاستاذ نيكلسون Nicholson

لندن ١٩١٤) — ص ٢٥ — ٢٨

(٤) منه أيضا ص ٢٥ (٥) بروون أن أبا بكر قال « أي أرض تقاني وأي سماء تظاني »

القشيري في رسالته بين مشايخ الطريقة حتى ان اسمه لم يرد في كل الرسالة سوى خمس مرات . واما زعمهم ان التصوف وجد في عهد الرسول فاختلاق متصوفة العهد الاخير تبريرا لاعمالهم وارجاعا لها الى عهد الرسول واستنادا على مماشاة سنته الرضية (١) « وذهب بعضهم الى أن الاسم منسوب الى مسجد الرسول « صفة » وآخرون الى أنه اشتق من الصفاء أى الطهارة والعفة . قيل ان أصله صفوى نصحف « فصار صفوى » أو « الصف » زاعمين ان الله قد اختارهم ليكونوا قادة البشر وورثة الانبياء . واكثر القائلين بهذه الآراء من المتصوفة أنفسهم .

و يقول الطوسي « و الاظهر فيه انه كالتب واما قول من قال انه من الصوف فذلك وجه . ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف » و يقول القشيري « لاشهيد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس ، والظاهر انه لقب ، ومن قال اشتقاقه من الصفاء أو الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوي وكذلك من الصوف لان القوم لم يختصوا بلبسه » (٢) .

وأما الباحثون المستشرقون فيميلون الى اشتقاقها من الصوف . وقد جارى العلامة ثيودور نلده Noldeke الالماني القشيري حينما رفض رأى القائل باشتقاقها من الصفاء أو الصف أيضا لاسباب لغوية .

وقد حاكى العلامة نلده والاستاذ نيكلسون ابن خلدون في قوله « والافاهر انه قيل بالاشتقاق انه من الصوف . وهم مختصون بلبسه في الغالب لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب الى لبس الصوف (٣) »

واذن بات من الراسخ لدى العلماء اليوم ان الاسم مشتق من الصوف وان القوم اختصوا بلبسه تميزا لانفسهم عن الطبقات التي اركنت الى البذخ وانغمست في الترف .

وقبل ان نترك هذه النقطة نورد رأيا مغايرا لكل ما ذكر آنفا وهو رأى العلاقة Vou Hammer « قون هامر » الذي يرى ان أصل الكلمة يوناني مشتق

(١) Literary history of the Arabs, R. A. Nicholson (London, 1923) P . 722

(٢) مقدمة ابن خلدون « بولاق ١٢٨٥ هـ » - منقولة عن القشيري - ص ٣٩٠

(٣) « « « ص ٣٩٠

من كلمة «سونس» ومعناها الحكيم Wise ول كن العلامة نلذكه المشهور تقض
هذا الزعم في سنة ١٨٩٤ م أيمن كان استاذاني جامعة شتراسبورغ Strassburg
٣ - أول من استعمالها وأول من أطلقت عليه

يظهر أن أول من استعمالها من كتاب العرب هو الجاحظ (توفي ٨٦٩ م)
في كتاب البيان والتبيين بقوله «الصوفية من النساء» على أن كلمة «لبس الصوف»
وردت (كما قل نلذكه) كثيرا في آدب الجاهلية وكن معناها «ابتعد عن
زخرف الدنيا». ولكنها تخصصت وضاق نطاقها بعد الاسلام وصارت تطلق
على تلك الفئة الخاصة.

وأما أول من أطلقت عليه هذه اللفظة فأبوا هاشم الكوفي (حوالي ٧٧٨ م)
لدى عاش في تكية الزمالة (فلمطين)
والظاهر أن هذه اللفظة جاءت (بمعناها الخاص) في دور الانتقال والتحول
من الزهد الى التصوف في نهاية القرن الثاني للهجرة (١).

ب - التصوف والزهد Asceticism-Mysticism

١ نشوء الزهد

قال ابن خلدون في المقدمة «الصوفية من العاوم الشرعية الحادثة في الملة .
وأصلها المكوف على العبادة والانقطاع الى الله تعالى والاعراض عن زخرف
الدنيا والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاد والافراد من الخلق في الزمالة
للعبادة وقد كان ذلك فاشيا في الصحابة والسلف . ولما عم الاقبال على الدنيا
في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس الى مخالطة الدنيا اختصر المتبعون على العبادة
باسم الصوفية أو المتصوفة .»

وهذا ز بدء ما نود ان نقول ، فإن الزهد كما كان قشيا بين العرب حتى في جاهليتهم
ولكنه ز في وقت النبي وبعده مع ان النبي (صلى الله عليه وسلم) لم يأمر بالانقطاع عن الدنيا

(1) Encyclopaedia of Religion and Ethics (Edited by James Hastings
1291) vol. XII, P. 10. - Sufism - by Nicholson.

حتى ان لفظة زهد لم ترد غير مرة واحدة في القرآن (١) . ويعتقد نيكاسون ان المسيحية كانت ذات تأثير شديد في نشوء الزهد قبل الاسلام وبعده مستدلا بشواهد من الآداب الجاهلية . حتى انهم فسروا نشوء جماعة الخنفاء مفردتها - حنيف - امثال ورقة ابن نوفل (ابن عم خديجة زوجة رسول الله الاولى) واضرابه الى تأثير رهبان النصارى ونساكهم .

قد تكون المسيحية من العوازل الفعالة في نشوء الزهد الجاهلي فقد كان بعض الخنفاء نصارى مثل عثمان بن الحويرث (٢) . ولما كنا نستبعد ان تكون أظهر من الاسلام في تأثيرها بعد مبعث الرسول . فهو واصحابه وخلفاؤه كانوا قدوة الزاهدين العابدين . والشواهد على ذلك مشهورة وكثيرة لاحاجة لتعدادها الآن

٢ - الفرق بين الزهد والتصوف

اذا وضعنا نصب اعيننا الفكرة القائلة بنشوء التصوف من الزهد ايقنا ان هذا الفرق ضئيل غير واضح منذ البداية . ولكنه بدأ يظهر لما تطورت الصوفية ودخلت اليها العناصر الاجنبية . ولا يفوت الباحث من هذه الفروق ما يأتي .

أولاً - فرق في الغاية . فلزاهد الذي ينصرف عن الملذات الدنيوية وينكر نفسه وشهواته ويتحمل مرارة الجوع والعطش ، لا يفعل ذلك الاطمعا في الآخرة وجنات النعيم . وأما الصوفي فلا يرجو من ذلك شيئاً وإنما همه الوقت الحاضر ، وهدفه معرفة الله والاتصال به (٣)

ثانياً - فرق في الفكرة . فلزاهد دوماً محووط بجلال الله وجبروته وبطشه وعقابه والصوفي ناعم البال في رحمته ولطفه وكرمه وفوق كل شيء « محبته » .

ثالثاً - فرق عام . وهو ان الزهد عام في جميع الاقطار والاعصار في كل دين وجيل أما الصوفية فتزعة خاصة ولديها عوامل شتى في الظروف خاصة تحت راية الاسلام .

(١) Encyc. of Rel & Eth., Vol. II, P. 99, - Aceticism - by Nicholson.

(٢) تاريخ ابن هشام ص ٧٦ تم ٩٤١ P. Nicholson, L. history of the barabs,

(٣) منال ذلك ما روى عن ربيعة المدوية المتصوفة :

أتحبين الله؟ نعم أتعلمين الشيطان؟ فقالت ان حبي لله لا يترك متسماً من الوقت لالمنه فيه . رأيت النبي في المنام فقال لي « أي ربيعة: أتحمينني؟ فقلت له ومن ذا الذي لا يحبك يا رسول الله . واسكن حبي لله لا يترك مجالاً في قلبي لحب مخلوق أذكره »

نما الزهد اثر الحروب الاهلية ومقتل عثمان الذي ادمى قلوب المتدينين والنساک . أخنف الى ذلك اشتداد الغطرسه العسكرية الاموية وتطاحن الاحزاب وتضارب الفرق . وكان الناس — اترب عهدهم في الدين — موقنين ان الله لا يترك الناس في هذه الفوضى دون هاد أو رسول وقد انتظروا هذا في «المهدي» وحملت فكرة ظهور المهدي كثيرين على اعتزال الحياة ريثما يعود السلام الى العالم .

أجل . اثرت هذه العوامل في عقلية زهاد المسلمين كما اثرت نظائرها في زهاد النصارى قبلهم فنظروا الى القوة الآلهية وايقنوا ان البذخ والترف بدعة وتحققوا أن الدائم الذي لا يفنى والحقيقة التي لا تبلى هي الاتصال بالله .

وكان الحسن البصري طيلة عهد بني أمية أشهر رجالهم ويصبح اعتباره مؤسساً للمذهب البصري في الزهد . فالتصوف (١) اذ كان لهم اجتماعات يظن أنه كان يرأسها (٢)

٤ حياة الزهاد

رغمًا عن أن القرآن (سورة الحديد الآية ٢٧) يعد الرهبنة بدعة في النصرانية بقوله : « ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الابجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها . . . الخ » ورغمًا عن أن النبي (صاعم) قال « لا رهبانية في الاسلام » . رغمًا عن هذا كله ، فإنه عند نهاية القرن الثاني للهجرة ، تأسست فرق من الزهاد تأوي الى « المقامات » و« المرات » وعاشوا عيشة فيها شبه من الرهبنة النصرانية .

واتهاما للبحث ند كر كلمتين عن معيشتهم وممارستهم :

أولاً — اللباس : يقول نلذكه ان الصوف والاردية المصنوعة منه كان فاشيا في الجاهلية و بعد الاسلام . لبس القوم الجبة أو المدرعة وتضيف المرأة اليها

(١) قوت القلوب لابي طالب المكي (طبع مصر ١٣١٠ هـ) ج ١ ص ١٢٠ و ١٦٦

2 Encyc. of Rel., and Eth., vol II, P101 - Nicholson

الحمار . ولبسوا كذلك ابرانس الطويلة والارديه كما لبسوا الازار
واخف والفرو .

ثانياً — الطعام . « أوصي ابراهيم بن الادهم بطعام من الخبز الساخن والزيت
وفضل شيرد الخبز والملح وانقطع بعضهم عن اكل اللحوم جملة . وكانوا ينذرون
الصوم من نوع من انواع الطعام مخصوص كالتمر مثلاً ويرغمون ان في ذلك تقرباً
من الله تعالى (١)

وكانوا يصومون في غير رمضان . ويقال ان بايزيد البسطامي عرف الله جل
وهلا بالجوع والعري (٢) . وأما اشهرهم في الصوم فسهل بن عبد الله التستاري
(٨٩٦م) وقد اعتقد المتصوفة المتأخرون ان « الانسان الصمداني لا يأكل غير
مرة في ثمانين يوماً » (٣)

ثالثاً — الصلاة . لم يكتفوا بالصلوات الخمس المفروضة بل عمدوا الى القرآن
يستمدون نوحى والالهام فوجدوها في « واذكروا الله كثيراً » وغيرها من
الآيات فابتكروا أنواع جديدة من العبادة والذكر كتكرار اسم الجلالة أو آية
شريفة مرات عديدة متوالية بنغمة خاصة وصوت خاص .

ويقول القشيري ان هذا من ضروريات الدين الحقيقي . والذكر باللسان
كذلك كمر بالقلب ضروريان .

الجامعة الامريكية في بيروت عبد اللطيف الطيباوى

(١) لوائح الانوار للشيخ عبد الوهاب الشمراني ج ١ ص ٦١

(٢) الرسالة القشيرية ص ١٦

(٣) الرسالة القشيرية ص ٨٧ - ٧٩ وللوقوف على تفاصيل اخرى راجع احياء علوم الدين
الغزالي (طبع مصر ١٢٨٩هـ) الجزء الثالث ص ٨٧ .